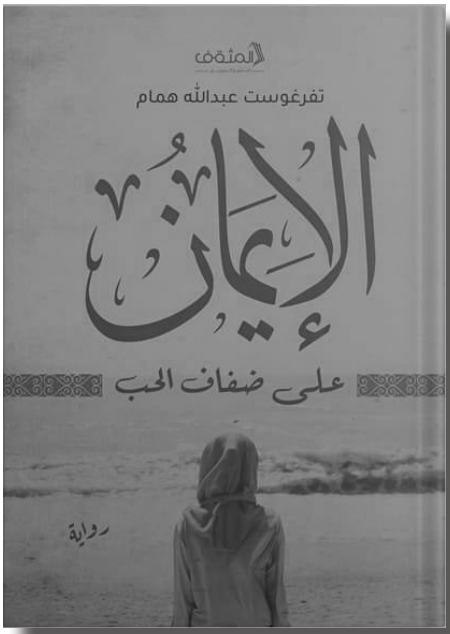
المثقف
تفرغوست عبدالله همام
الإيمان
على ضفاف الحب
رواية

الطبعة الأولى 1442 هـ - 2021 م
(ISBN) : 978-9947-79-974- 1
الإيداع القانوني: 2021/01

اسم العمـــــل: الإيمان على ضفاف الحبّ
اسم المؤلـــف: تفرغوست عبد الله همام
تصميم الغلاف: زكرياء رقاب
إخـــــــراج: أحمد منصـــــوري
تدقيق لغـــوي: إكرام مباركي
المدير العـــام / سميرة منصـــــوري

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبـــوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكترونـــي: www.elmmothakef.com
هاتـف / فاكس 79 47 80 033 / 19 04 68 0770
واتساب/86 73 49 0675
مقر الدار: Rue Ben flis- impasse kalenge- batna

المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر.
©

تفرغوست عبد الله همام

الإيمان

على ضفاف الحبّ

«رواية»

المثقف
للنشر والتوزيع

إهـــــــــــــداء

إلى أمّي وأبي

إلى كلّ من ساندني وأيقظ قلمي الذي كان في سبات

وإلى كلّ من حطّمني وشلّل أناملي

إلى الأشرار والأخيار إلى الإمام والقدّيس

إلى الملائكة وإلى إبليس ببساطة إلى الجميع.

***

بداية اللعنة

اليوم أو ربّما أمس، لست أدري دخلت على أبي عمر حاملا شهادة مهندس في الإعلام الآلي بعد جهد سنوات، كنت في غاية السّعادة كنت أتوقّع من أبي أن يبادلني هذا الشعور لكن صدمني تماما فقد نظر إليّ بنظرة حادة وقال:

- مبارك لك.

-أبي هل أنت بخير؟

-بخير... بخير، اجلس يا بنيّ، سأسرد لك قصة طويلة قد تبدو لك كرواية لكن لا تقاطعني.

-تفضّل يا أبي لا أستطيع أن أرفض لك شيئا، اليوم أنا في غاية السّعادة.

- بينما كان السيّد سليمان جالسا كعادته في مكتبه ينظر إلى تلك الملفات المبعثرة تارة ويلتفت لرؤية ساعة يده تارة أخرى، مشوش الذهن كأنّه عصفور أضاع فراخه، يندب حظه العثر ثمّ يدعو الله بقلب خاشع قائلا:

يا الله أنت تعلم ما تخفي الصدور، يا خالقي هناك أمنية ينبض بها قلبي أرجو أن تحققها، إلهي لقد دعوتك مرار وتكرارا، سرا وجهرا،

لقد مرّ على زواجي بأمّ الهناء عشر سنوات وفي كلّ يوم ألجأ إليك، وبدأت الدموع تنذرف من عينيه حتى ابتلّت لحيته التي ابيضّت من كثرة البكاء، وبينما هو يبكي رنّ هاتفه... إنّه رقم أحد الخدم في بيته الذي يشبه كثيرا القصور الملكيّة، أخذ نفسا عميقا، لملم نفسه، مسح دموعه وأجاب: مرحبا تكلّم بنيّ ماذا تريد؟

- سيّد سليمان لقد أغمي على زوجتك وأخذها السائق الخاص بك للمستشفى.

ردّ بهلع:

- ما بها؟ لقد تركتها بخير صبيحة اليوم!

- كانت تصلّي وتدعو الله كعادتها إلى أن سقطت.

-إلى أيّ مستشفى أخذها؟

أعطاه الخادم العنوان ثم أغلق الخط وتنهد قائلا:

آآه يا أمّ الهناء لم تتذوقي راحة البال في حياتك، أتمنى أن يحقّق الله أمنياتك، أمّا عن السيّد سليمان فقد ركب سيارته واتّجه صوب المشفى وهو يجرّ خيبته خلفه، وبدأ يتمتم بينه ونفسه مرتعشا من هول الخبر قائلا: يا الله أمقصر أنا بحقك؟ أظلمت أحدا من عبادك؟ كنت أدعوك باكيا خاشعا وتعاقبني؟ ردّد هذه الكلمات ثمّ واصل طريقه وهو يقود بسرعة وها قد وصل للمكان المنشود، دخل المشفى وبدأ

يتلفظ بكلمات مبعثرة تدفقت من تلقاء نفسها بسبب الفزع، دلّه أحد الممرضين على غرفة أمّ الهناء، فاتّجه نحوها وداخله يأمل بأن تكون بخير أمّا خارجه فيوحي بأنّه غير مبالٍ فقد كان يمشي بخطى واثقة وتمكّن من السيطرة على انفعاله، فمعروف عن السيّد سليمان إظهار كبريائه أمام النّاس، وتجده ذليلا باكيا أمام الله ولكن بالرغم من ذلك كان يحبّ الخير وينفق نصف مداخيله على الفقراء والمساكين أمّا عن خدمه فقد كانوا بمثابة أبنائه، دخل الغرفة فصادف ما لم يخطر بباله لقد كانت أمّ الهناء مبتسمة زاهية كأنّها زهرة اكتسبت رونقا من ريعان المطر. تنهّد سليمان ثمّ قال:

- الحمد لله أنّك بخير لقد أخفتني.

- قالت: ستبكي فرحا بعد قليل.

- أأبكي فرحا ونصفي مستلقٍ على سرير في المستشفى؟

- ردّت مبتسمة: النصف سيتضاعف.

بعد هذه الكلمات التي وقعت كالصدمة على قلب سليمان اتّسع بؤبؤ عينيه ليصل إلى ذروته وأخذ يردد:

- هل سأصبح أبا؟ أجيبيني يا أمّ الهناء هل ستنجبين منّي؟ وظلّ كلاهما يحدّقان في بعضهما البعض بابتسامة عابرة للأفق ثمّ ردّت:

- نعم لقد استجاب الله لدعائنا، ألم أخبرك بأنّ الله أقرب للعبد من حبل الوريد.

أخذ سليمان زوجته في أحضانه وانهارا بالبكاء -لكن هذه المرة كانت دموع فرح - ثمّ خرج إلى رواق المستشفى وبدأ يقفز من مكان لمكان ضاحكا مع الجميع كأنّه مهرج، صارخا بأعلى صوته:

- لقد رزقني الله سأصبح أبا.

ثمّ رفع يديه وأخذ يطلب المغفرة من الله قائلا:

- غفرانك ربّي ظننت بك سوءًا فأغرقتني برحمتك وأبكيتني فرحا.

وبينما هو يؤدّي طقوس فرحته استوقفه الطبيب وأخبره بأنّ سبب الإغماء مجرد تعب، وأنّ صحة زوجته بخير كما أوصاه بأن يهتمّ بها لتكتمل الفرحة بخروج ما بجوفها، فردّ عليه بابتسامة واسعة ونظرة حادة قائلا:

- سأهتم بفلذات كبدي حتى ولو كلّفني ذلك حياتي.

أعطاه الطبيب الإذن بالخروج فاتّجه إلى زوجته وأخذها من يدها ليساعدها على الوقوف وقال:

- هيّا بنا يا رفيقة دربي، استندي على كتفي يا أميرتي.

كان خارجا من المستشفى وهو يحتضن زوجته بيمينه ملوحا بيده الأخرى لامحا كلّ العاملين بابتسامة الفخر مرددا (شكرا لكم وفقكم الله).

أوصل زوجته إلى البيت وبدأ يقفز من خادم لخادمة يزفّ إليهم الخبر، ولم يكتفِ بهذا بل أخذ هاتفه وراح يتّصل بكلّ رقم موجود فيه مخبرا إيّاهم بأنّه سيصبح أبا، كما أعطى لمعظم عمال شركته يوم عطلة مدفوعة الأجر.. لقد أفقده ما كان في بطن أمّ الهناء عقله فقد كان يبدو كالمجنون.

فمن منّا لا يريد أن يرى قطعة صغيرة من قلبه تبتسم له ببراءة، من لا يريد نسخة منه تحمل صفاته الوراثيّة والروحيّة، من منّا لا يريد صفحة بيضاء يزرع فيها مبادءه، ابنا تربّيه فيكون من عباد الله الصالحين يخدم دينه وعقيدته، فحقًّا الأبناء نعمة فقد قال تعالى﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كما وصفهم في آية أخرى بالفتنة فقد قال﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾

- فماذا ينبغي على الإنسان فعله يا أبي؟

-ما على إبن أدم يا بنيّ إلّا أن يشكر المنعم ويتضرع له ليصرف عنه الفتن، وهذا ما قام به السيّد سليمان بطبيعة الحال فقد كان قريبا من الله مطلعا على عقديته مهتما بأمّ الهناء، فكيف لا وقد أوصى الإسلام بالنّساء فهن المؤنسات الغاليات.. أذكر أنّه كان يقضي معظم وقته مع زوجته يتسامران طوال الليل، يتناولان من طبق واحد وما إن اشتهت أميرته شيئا لوّح بيده فحضر قبل أن تنهي الكلام فهكذا تقضي أمّ الهناء وزوجها يومهما يتنعمان.

بدأت الأيّام تمرّ والأشهر تنقضي وها هو الشّتاء يلفظ أنفاسه الأخيرة يكاد يرحل ويأخذ معه ثلوجه التي تبثّ الهدوء في الأنفس، وتلك الأمطار التي تنزل عن القصور والأكواخ الممتزجة بزمهرير الرّياح الذي يداعب أغصان الشجر مصدرا نغما موسيقيًّا ها قد أوشك على الفراق، وها هي أمّ الهناء تقف في شرفة قصرها تراقب السّماء كأنّها تنتظر أن تنزل على يدها الناعمة إحدى الفراشات لتبشرها بحلول الربيع أمّا عن ذاك الحبيب المنتظر يقضي معظم وقته يركل في بطن أمّه.

- يبدو أنّه متحمس للخروج لهذه الحياة.

- آااااه ويا ليته يعلم بؤسها، ويا ليت كلّنا يعلم ما تخفيه الدنيا لنا من لعنات، فلكلّ بشر منّا مأساة، ولم يبقَ على خروج ابن سليمان إلّا بضعة أيّام، فأخذت تفكّر باسم يليق بوليدها، وبينما هي شاردة البال دخل عليها زوجها ببذلته السّوداء حاملا معه اهتمامه الذي يجعل الرّوح تدبّ في جسد أمّ الهناء.

اقترب منها... احتضنها وقال:

-كيف حال الملكة وأميرها.

-بخير الحمد لله.

-لقد طال انتظاري ويكاد صبري ينفذ، أنا متشوق لرؤية ولدي.

-صبرا يا سليمان فكلّ شيء قدّره الله تقديرا.

-أعلم ذلك يا عزيزتي لكنّ شوقي يكاد يعمي بصيرتي.

أخذت أمّ الهناء يدها ووضعتها على كتف سليمان وقالت:

- عزيزي ما الاسم الذي تريد أن يحمله ابنك؟

-مهلا جميلتي فكلّ شيء في وقته جميل وأظنّ أنّك أحقّ بتسميته لأنّك حملته تسعة أشهر وهنا على وهن.

- يبدو أنّنا سنفوّض اسمه للقدر.

ثمّ تنهدت وقالت:

-لا أعلم ما يحدث لي، أشعر كأنّنا سنفترق.

احتضنها وقال:

- الفراق سنّة الحياة ولن تفرّقنا سوى الموت فلا تخافي.

وضعت أمّ الهناء رأسها على صدر سليمان وأخذت تبكي قائلة:

- أنا أثق بك وأعلم كم تحبّني لكن أرجوك عدني إن حدث معي شيء ستهتمّ بابننا.

-الله الله من أين خرج هذا، لن يحدث شيء لا تخافي أنا معك هيّا بنا ندخل غرفتنا لنرتاح.

لقد كانت ليلة هادئة ومخيفة في آن واحد؛ فقد قضت أمّ الهناء ليلتها متشبثة بأحضان زوجها كأنّها خائفة من الظلمة أن تنهش روحها.

بدأت الساعات تمرّ وها هو النّعاس يتلاشى من جفون أمّ الهناء فخرجت من تلك الغرفة بهدوء حتى لا تزعج زوجها، تفقّدت الساعة فوجدتها تشير إلى (3;45) ولم يبقَ على صلاة الفجر سوى نصف ساعة، توضأت ثمّ جلست وأوقدت شمعة أضاءت لها جزءًا صغيرا من الغرفة وتناولت بيدها ورقة بيضاءً وقلما وأخذت تكتب والدموع تتهاطل على تلك الورقة متسابقة مع حبر القلم، وبينما هي تعذّب أناملها بتلك الكلمات وإذا بيد تلامسها.

-آآاه سليمان لقد أفزعتني.

-ماذا تفعلين في هذا الوقت وما تلك الورقة؟

-(متوترة) لالا لا شيء مهم، هاه ها قد حان وقت الصلاة إنّ السّعادة تنادينا.

لبّى كلاهما نداء السّعادة وأخذا يدعيان وبعد الانتهاء قالت أمّ الهناء: سليمان أريد أن أعطيك ورقة لكن عدني ألّا تقرأ ما فيها إلّا حين نفترق.

-عزيزتي لقد أصبح كلامك مخيفا.

- ألم تقل أنّ الفراق سنّة الحياة؟

-ممم لا تكلّفيني ما لا طاقة لي به، أنت تعلمين أنّني إنسان فضوليّ وأحبّ أن أعرف كلّ شيء.

-فكّر بإجابية يا عزيزي إن أعطيتك الورقة ستتمكن من قراءتها في وقت لاحق وستشبع فضولك.

-لا فائدة من ذلك لأنّنا لن نفترق.

-ردّت: الفراق سنّة الحياة لا تنسَ، ثمّ قامت من مكانها ووضعت تلك الورقة في جيبه وقالت: أعلم أنّ حبّنا أقوى من فضولك، من أجلي لا تقرأها إلّا حين نفترق.

-أعدك ياعزيزتي ماذا عساي أن أقول.

وبعد هذه الكلمات ذهب سليمان لعمله كعادته ولم يكن يعلم ما يلعبه معه القدر، فبعد وصوله لمكتبه أخذ يفكّر في تلك الورقة وماذا يوجد فيها وماذا تعني بكلمة سنفترق، وبينما هو مسافر بعقله لأقصى الحدود رنّ هاتفه ردّ وإذا بصوت روجوليّ يقول:

- زوجتك في المستشفى لقد جاءها المخاض.

- ما معنى ذلك هل سيخرج ابني للدنيا؟

- إن شاء الله.

أغلق الهاتف وذهب مباشرة للمستشفى ليرى فلذات كبده (زوجته وابنه) فوصل في غضون دقائق واستوقف الطبيب قائلا:

- دكتور أين زوجتي هل هي بخير؟ هل يمكنني رؤيتها؟

ردّ الطبيب: ابنك بخير أمّا الأمّ فقد توفيت، تعازيَّ لك.

وقعت هذه الكلمات كالصدمة على قلبه، فوقع على ركبتيه وبدأت الدموع تنذرف، وبينما هو مصدوم لمح ورقة بين قدميه علم حينها أنّها تلك الورقة المشؤومة وعرف ما كانت تعنيه أمّ الهناء بكلمة سنفترق... التقطها بأيدٍ مرتجفة ودموع منهمرة وبدأ يقرأ تلك الكلمات تحت نغم خاص، إنّه نغم يصدره ابن آدم لحظة خروجه لهذه الحياة... إنّه البكاء.

-لماذا شبهت البكاء بالنغم يا أبي؟

-لأنّه بكاء من نوع أخر نصدره كلّنا لنثبت أنّنا موجودون، فبينما الرضع يبكون تجد الآباء يضحكون، وعندما تمتزج الضحكات بالبكاء يصبحان عبارة عن نغم.

- إجابة مقنعة.

-ألم أخبرك بعدم المقاطعة دعني أكمل لك القصّة.

-عذرا.

-لا عليك كما كنت أسرد لك.

فتح سليمان الورقة وبدأ يقرأ في الكلمات المليئة بالحزن:

_سليمان عزيزي أنت إنسان رائع ذو قلب طيّب، أحببتني وتزوجتني رغم أنّني لم أستطع أن أنجب لك طفلا إلّا أنّك لم تتركني، فرزقك الله على نقاوة قلبك وكما تعلم أنّ الدنيا دار اختبار وابتلاء، وأنا راضية

تماما بما كتبه الله لنا فحبّك زادني إيمانا... عندما زرت الطبيب ليكشف لي عن جنس الجنين اكتشف فجأة أنّ في جسدي ورم خبيث، وإمّا أن أُسقط الجنين أو أموت بسبب النزيف، فاخترت التضحية فهي أجمل ما في الأمومة وأروع ما في الحبّ، عندما تقرأ كلماتي لا أريدك أن تحزن بل أريدك فقط أن تهتم بابننا، وكلّما اشتقت إليّ أمعن النظر به، أستودعك الله.

غسان: كيف يستطيع شخص التضحية بحياته من أجل إنسان لم يرَه قط.

عمر: إنّها الغريزة فالأمومة لا تكمن في التضحية فقط، بل يمكن للأمّ أن تشنّ حربا على العالم بأسره ليحيا ابنها.

-لكن لماذا حرم الله ذلك الفتى من أمّه أليس هذا ظلما؟

-بنيّ الله ليس بظالم للعبيد فالاحترام والذلّ... الشهرة ِ الحياة... الموت... كلّهم في يده، نحن لا نستطيع الوقوف ضد إرادته.

-لا علينا أكمل لي القصة، ماذا حدث لسليمان؟

-بعد وفاة زوجته غلبه الكبر فأصبح عجوزا لا يقوى على شيء، يقضي معظم وقته في غرفته، تارة يختلي بنفسه ويمسك صور زوجته وتارة يدعو الله بأن يرحمها، حقا كان عشقهما طاهرا عفيفا، وبعد مضي عام على وفاة زوجته وافته المنية رحمهما الله.

-لمذا تخبرني بهذه القصّة؟ أهي واقعيّة ومن هذا سليمان؟

-القصّة تعنيك أنت يا بنيّ، فقلت أسردها لك لقد حان الوقت لتعرف الحقيقة.

لقد كنت خادما في بيت سليمان أيّام شبابي وكان يعاملني كابنه وبعد وفاة زوجته وعندما أحسّ بدنو أجله سلّمني ابنه واستحلفني بأن أكفله كما سلّمني كلّ ثروته وذلك الطفل هو أنت ياغسان.

-تبا لكن لماذا تخبرني بهذا بعد أن أصبح عمري 25 سنة.

-لقد كان ضميري يعذبني وفي كلّ يوم أستجمع شجاعتي لأخبرك لكن خشيت أن تتركني... اليوم حان الوقت لتستلم زمام الأمور.

تنهد غسان ثمّ حضن والده عمر وقال:

-لا يا أبي لن نتبادل الأدوار ستبقى أنت أبي وأنا الابن البار، ثمّ قمت قبّلت رأسه وخرجت بعد أن ارتديت معطفي الأسود وتلك القبعة الشاحبة، ركبت سيارتي وبدأت أقود بسرعة متسابقا مع الزمن لا أعلم أين أذهب فأنا أسير دون وجهة. أفكّر في كلام أبي عمر، لقد كان الطريق شبه خالٍ، الوقت متأخر جدا، لفت انتباهي تلك الحانة ذات اللون الأحمر التي لمحتها على قارعة الطريق تعجبتم صح؟ نعم أنا معتاد على الذهاب للحانات وشرب الخمر... أعلم أنّني ولدت في عائلة مسلمة لكنّني لست مسلما، أنا لا أؤمن بشيء لا وجود له في الواقع...

أوقفت السيارة ودخلت وبدأت أحتسي كؤوس الخمر، فكما أخبرتكم أنا والشراب صديقان مقربان، دائما ما نختلي بأنفسنا ونعتزل البشر، فنحن لا نكره النّاس لكن نشعر بالسّعادة حين نبتعد عنهم.

الملحد الحاقد

ناولني النادل الكأس العاشر من ذاك الخمر المعتق، وقفت في منتصف الحانة كسرته وبدأت أقول: ربّما تتساءلون عنّي تقولون من هذا المغرور؟

أعرّفكم بنفسي من أكون... بقدر ما أنا اجتماعيّ تجدني أحبّ الوحدة، أصدقائي بالمئات ووحدتي لا تطاق، أحيانا أخبركم بكلّ شيء عنّي وأحيانا لا أخبركم حتى عن اسمي، أكره الاحتكاك بالمجتمع لكن كأيّ إنسان لا بدّ أن يكون اجتماعيًّا، أتعجّب أحيانا عندما أرى نفسي قد كوّنت علاقات مع أشخاص لم أفكّر بهم أصلا، وعندما أحاول أن أقترب منهم أكثر أجد نفسي لا أجيد ذلك، هنا يتجسّد أمامي ذلك المثل الشعبيّ ((خلطها تصفى))

لأنّني كلّما خططت أجد خططي تبوء بالفشل، لكن عندما أترك الأمر للحظ وأقف بصورة ارتجاليّة أجدني أتحكّم في زمام الأمور... تبًّا ما هذا؟

تارة تجدني أثرثر وأجيد فن الحديث، أقنع وأحلل وأناقش وأواجه كلّ المستمعين وتارة تجدني طفلا صغيرا يتلعثم، وأحيانا أكون حجرا لا ينطق لساعات، أنا لا أعترف بالحبّ لأنّي أرى أنّه لا وجود له بين

البشر، فما هو إلّا مصالح وإشباع حاجات ولكنّكم أنتم تدّعون أنّكم تحبّون لأنّكم كبرتم على حبّ الله، الأمّ، الأب والوطن لكن أنا نقيضكم؛ فأنا ارتقيت لدرجة حبّ الموتى فكلّ من أعرفهم ماتوا أمّا عن الله فلا أؤمن بوجوده وحتى إن وجد فأنا حاقد عليه لقد حرمني من الحبّ...

هل عرفتموني الآن أم أنّكم تريدون المزيد؟

حسنا لكم ذلك سأعطيكم آخر ما توصلت إليه، أنا لست مميّزا ولست عاديا وتأرجح مع عقلي على كافة الألوان، تجدني مبتهجا سعيدا صباحا وبائسا تعيسا مساءً وكلتا الحالتيين تتناوبان لفترات، غالبا لا أشعر بشيء محدد قد أشعر بكلّ شيء لكن لا وجود للشعور المفرد، مزاجي متقلب طوال فترة وعيي، أنا كريم سخيّ أضحّي بما لديّ من أجلك، ثمّ أنانيّ بخيل إذا لمحت غدرك، أتمنّى أنّكم قد فهمتم شيئا عنّي

هل ما زلتم تتساءلون عن شكلي وملامح وجهي؟

حسنا سأشبع فضولكم ولن أدعه يحرق روحكم.

أنا جزائريّ ذو بشرة سمراء، صاحب نظرة حادة كطائر العنقاء، ممشوق القامة وكلّي وقار ومعظم ملابسي كلاسيكيّة سوداء، ويعتلي رأسي قبعة ذات لون داكنٍ تبا أنا أصف لكم نفسي وأنا واقف أمامكم ما هذا الغباء؟

كنت ألقي كلماتي كأنّها ترانيم ثقيلة والكلّ هادئ، لا أعلم إن كانوا يستمعون أم أنّ الثمالة هدّأتهم.

انصرفت تاركا بعض الأموال على الطاولة وأخبرت النادل أنّ كلّ المشروبات المقدّمة لهؤلاء المخذولين على حسابي، وبدأت أسير في ذلك الشارع العتيق المظلم محاولا الوصول للبيت، لقد كنت أمشي بخطى متثاقلة حاملا هاتفي بيدي، اتصلت بصديقي جورج ـرفيق الدراسة ـ ذلك الإفريقيّ اللعين عيناه شيطانيّة مرعبة، ضحكته غير مبالية وقحة، شعره ثائر وغير مستوٍ، تهوينه الأحمق من شأن كلّ شيء... إنّه لا يردّ.

وصلت لقصر سليمان الذي أورثه كما تركني لخادمه عمر، اتّجهت مباشرة لغرفتي

أنا أشعر بأنّني وحيد، اشتقت لأمّي وأبي اللذان حُرمت منهما، كما كنت أشعر بأنّني غريب للمرة الأولى عن أبي عمر تبا لقد نسيت السيارة، أمضيت ليلة ثقيلة جدا وما زالت جفوني مغلقة تأبى الانفتاح، لكن لم أكن نائما أنا أشعر بكلّ شيء لكن لا يمكنني فعل شيء كنت شبه مخدر.

ما هذا الصوت اللعين؟ إنّه يزعجني يبدو أنّه المنبه.

لا إنّه اتصال من جورج.

-مرحبا غسان.

-تكلّم يا جورج أنا لست في وضع يسمح لي بسماع ترحيبك، ادخل في صلب الموضوع.

-ما رأيك بحفلة مليئة بالخمر لنهرب قليلا من الواقع؟

-حسنا سأكون عندك في تمام الساعة الثامنة ليلا جهّز نفسك.

-أووك.... باي.

أنهيت الاتّصال وأنا أفكّر في طريقة تجعلني أبتعد، أريد الخروج من هذه البلدة لأبدأ حياة جديدة، اللعنة على كلّ شيء تركه لي سليمان.

إنّه موضوع عميق شغل عقلي، يبدو صعبا كأنّه معادلة رياضيّة.

أظنّ أنّ هذه المعادلة ليس لها حل، سأترك الأمر للحظ كما أفعل في كلّ مرة.

لقد حان وقت الاحتفال لقد وصل جورج وبينما أنا خارج من البيت استوقفني أبي عمر قائلا: إلى أين أنت ذاهب ياغسان؟

-ذاهب لقضاء ليلة رائعة مع الأصدقاء سأعود غدا.

-حسنا يا بنيّ (ربِّ معاك)

-أجبته مازحا لا يوجد مكان بالسيارة يا أبي، إذا أراد الذهاب فليركب في صندوق المتاع هههه.

-أستغفر الله ماهذا الكفر العظيم يا بنيّ.

ذهبت تاركا إياه يستغفر ربّه لوحده، جلست بجانب جورج سلّمت عليه وانصرفنا،

كان يقود بسرعة متشوقا لتلك الحفلة، كلّنا متشوقون لأنّنا نريد الهروب من الواقع البائس.

الأمطار تهطل بغزارة وما زال هذا الإفريقيّ اللعين يدوس على مزود السرعة.

- تبا ما هذا الشيء الأبيض على قارعة الطريق.

قال جورج ساخرا:

- لو كنت أؤمن بالملائكة لأخبرتك بأنّه ملاك.

-ههه، يبدو كأنّه ميت عاد للحياة.

وبينما تمتزج ضحكاتنا العالية بصوت الموسيقى الصاخبة تغيّرت ملامح جورج وبدأ يدوس بكلّ قوّته على الفرامل لتخفيف سرعة السيارة لكنّ المكبح يأبى الرضوخ لركلات جورج، لقد كان وجهه يوحي إليّ بأنّ الأمر خرج عن سيطرته، التزمت الصمت لأن الوضع غير ملائم للكلام، كانت نبضات قلبي تتزايد وأنا أراقب السيارة تنعطف يمينا ويسارا، وفجأة لم أعد أشعر بشيء كلّ ما أشعر به هو الصداع الذي سبّبته لي تلك القطرات الدافئة التي تتساقط بين عيني.

- ما هذا الصوت العميق كأنّه أغنية كلاسكيّة لم تعجب الجمهور فتعالت أصواتهم، وما هي إلّا لحظات وإذ بذاك الظلام بدأ يتلاشى ليتحوّل إلى أضواء زادت من صداعي، كنت أراني أسحب من طرف غيمة بيضاء لا أعرف ماهيتها أهي من البشر أو من العالم الآخر، لقد كان ذلك الشيء يسحبني بقوة من ذلك المكان المظلم.

كنت في حالة اللاوعي لا يمكنني المقاومة كلّ ما أفعله أنّني أحدّق فقط.

تبا لجورج دائما ما تبوء حفلاته بالفشل، كانت هذه آخر الكلمات التي قلتها قبل أن أفقد وعيي ولم أعلم ما حدث بعدها، فعندما استيقضت وجدت نفسي مستلقٍ على سرير عرفت أنّني في المستشفى وما حدث أمس ماهو إلّا حادث مرور، وبينما أنا أحلّل تلك الأحداث دخل عليّ الطبيب قائلا:

- الاسم غسّان *** صحيح؟

- نعم... أخبرني ماذا حدث لي؟

- حادث مرور مروع ولقد نجوت بأعجوبة لكنّ صديقك توفي.

- لزمت الصمت، لقد كان هذا الخبر مؤلما بعض الشيء كيف يمكن له أن يموت هكذا بلمح البصر؟ تبا...

كنت أتحسر تارة وألعن هذه الحياة تارة أخرى، وإذا بأبي عمر يدخل عليّ دون سابق إنذار، رأيت في وجهه أثار الذعر لأنّه كان يتفحصني ثمّ يحضنني مرددا الحمد لله الحمد لله.

- تمالك نفسك يا أبي ها أنا بخير لا تقلق.

- لماذا تتحدّى خالقنا يا بنيّ ألا تعلم أنّ الله يمهل ولا يهمل؟

- أيّ إله يا أبي حتى وإن كان لا بد أن يعتذر منّي لقد حرمني من أبي وأمّي وما زال يبتليني.

-أنت محظوظ يا بنيّ لأنّ الله إذا أحبّ شخصا ابتلاه، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط، فلا تقابل أوجاعك بالسخط يا بنيّ لأنّ أعظم جزاء يأتي من كثرة البلاء.

-حسنا لنفترض أنّ الله موجود ويجب عليّ الصبر إذًا لماذا خلق الموت؟

- ابتسم ثمّ قال:

- مع احترامي لمستواك الدراسيّ العالي لكنّ أسئلتك تبدو حمقاءً لأنّك تجهل الدين، يا بنيّ أنت وأبناء جيلك تدّعون أنّكم مثقفون وأنّ عصركم عصر التطور لكنّكم تجهلون أحقّ العلوم بالمعرفة لو كنت تقرأ القرآن لوجدت الحل لأسئلتك الحمقاء يقول تعالى في الآيات (1، 2) من سورة الملك ((تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ 2)) .

-دائما ما تربطون الحياة بخرفات ما بعد الموت، ماذا لو أمضيت حياتك كلّها متعبدا وعندما تموت تجد أنّ الجنّة والنّار لا وجود لهما؟

- سأكون أفضل منك إن وجدتهما حقيقة.

- تقولون أنّ من هداه الله فلا مظل له صحيح.

- نعم.

- إذًا فليهديني إن شاء.

- سيرمي لك القدر شخصا يكون سببا في هدايتك إن شاء الله.

- مازحته قائلا: يا أبي ألم تخبرني بأنّ زمن الرسل انتهى؟

- نعم لكنّ الهداية لا ترتبط بالرسل، هناك حيوانات أدخلت أمما للإسلام.

- إذًا فليفعل إن شاء.

حلوتي

كانت تلك آخر ليلة لذلك المتعجرف الحقير الذي سكن جوفي واستولى على قلبي فجعله أشدّ من الصخر، لقد قتله شخص اجتمع فيه النقيضان، ذو قلب ليّن مليء بالحنان، متمسكا بمبادئه كإنسان، مستعملا في جريمته سلاحين؛ الأوّل للإبادة سمّاه بالحبّ، والثاني للحماية أطلق عليه قوة الإيمان، نعم فأكبر عدوّ للجهل والحقارة هو الحبّ، الحبّ الذي رأيته عندما عرفت بتول تلك الجميلة صاحبة الوجه الخجول الأمازيغيّة التي ورثت سواد عينيها واحمرار وجنتيها وبياض بشرتها من الجدة ديهيا _ملكة الأمازيغ_.

لا أزال أتذكّر اليوم الذي عرفته فيها، يوم جميل مثلها، يومها كنت خارجا من الجامعة فلمحتها لم تكن كمثلها من النّساء بل كانت متميّزة جدا، ترتدي لباسا فضفاضا يستر كلّ جسدها وذلك الحجاب الذي حرمني من رؤية شعرها وحتى تلك القفازات حجبت عنّي نعومة يديها، وما سحرني إلّا تلك الابتسامة التي طبعت على خدها غمازة تخفق القلوب لبروزها.

لا أعلم ماهذا الشعور أهو حبّ أم إعجاب فقط.

أين كرامتي وكبريائي أتلاشت، كنت أبدو كالأحمق وأنا أحدّق بها لا بدّ أنّه مجرد إعجاب فقط، أنا لا أعترف بالحبّ، أحدّق بها لأنّها متميّزة بملابسها ولا أنكر جمالها أيضا... لملمت شجاعتي واتّجهت نحوها بأقدام ثابتة توحي بعدم الاهتمام وقلب مرتجف يفضح ذلك الأقدام حدّثتها قائلا:

- مرحبا... صباح الخير.

- ردّت ببراءة: سلام.

- ممكن أن آخذ من وقتك دقيقة أو اثنان؟

- نعم تفضّل.

- كنت أريد.....

- تكلّم ما بك تتلعثم؟ ماذا تريد؟ أ أنت بخير؟

- ببساطة ودون الدخول في تلك المتاهات فأنا لا أجيد مغازلة الفتيات، لكن بمجرد أن رأيتك بدا لي هذا العالم جميلا للمرة الأولى، لا أعرف ما يطلق على هذا الشعورالمهم أنّني أريدك بجانبي فقط، هل تكرّمت وأدخلتيني حياتك؟

- الحبّ شيء جميل لكنّني أخشاه فهو بمثابة بحر؛ إمّا أن تغرق وتموت وأنت على قيد الحياة وإمّا أن تغوص في أعماقه فتنجو.

- أنا أيضا لا أجيد الغوص لكن لن أتركك تغرقي.

- الحبّ... الحبّ كلّكم تدّعون، ماذا تعرفون عن الحبّ؟... تريدون تلطيخ شرف الفتيات بدماء عذريتهم باسم الحبّ ثمّ تصرخون بأعلى صوت لا توجد فتيات صالحات للزواج؟.. لقد كنت أؤمن بالحبّ قبل أن تلطّخه أيديكم القذرة.

- تبا عندما أردت أن أحبّ تلطّخ.

- لا، لقد تلطّخ منذ زمن لست الملام.

- دعينا من الحبّ الآن، لماذا لا نكون مجرد أصدقاء ونترك علاقتنا للحظ فيرميها كما شاء إمّا للحبّ أو للعداء.

- أيّ صداقة... لا وجود لها بين الذكر والأنثى في ديننا فقد قال تعالى((وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا...))232 سورة البقرة.

- يبدو أنّك مرتبطة وتتحججين بالإسلام؟

- في الإسلام لا يوجد ارتباط... الرباط للحيوانات فقط.

-إذًا ما السبيل للحصول عليك... أقصد الحصول على قلبك.

- الأمر في غاية السهولة قال تعالى ((وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا)) 188 سورة البقرة

- (سكتت ولم أجب)

انصرفت تاركا إيّاها رغم أنّني أريدها لكن لا يمكنني أن أكون شخصا عاديًّا ـربّ أسرة.. زوجة وأطفال.ـ إن كان هذا هو الحبّ فهو يشبه كثيرا الخمر، فالسكير لا يتوقف عن الشراب حتى يصل لحد الثمالة وهكذا العاشق لن يتوقف عن الحبّ حتى يصل لمرحلة الزواج .

أيّ حبّ هذا، أنا لا أؤمن به، يمكنكم أن تطلقوا عليه جنون الامتلاك، فقد تعوّدت منذ صغري على أن أحصل على أيّ شيء أريد، فلتذهب هي والعشق إلى الجحيم.

كنت أعتقد أنّ اهتمامي بها سيزول مع الوقت أو سأجد فتاة أفضل منها وأواصل حياتي بشكل رائع، لكن هيهات هيهات، يبدو أنّني غرقت وأنا أكثر الاهتمام بها وهذا ما جعل العالم يبدو لي كعينيها مثل حظي. -سواد في سواد-، فحتى كؤوس الخمر ماعادت تنسيني. كلّ ما أفكّر به هو وجهها وكلمات ذلك الرجل العجوز الذي صادفته قبل يوم أو يومين؛ لقد كان يفترش رمال الشاطئ الدافئة محدقا في نجوم السماء وهو يبكي وصرخاته تملأ الأرجاء، اقتربت منه لأرى ما به رغم أنّ الخمر أثقل ممشاي لكنّ الفضول كان يشدّني إليه، أريد تعريته لأكتشف ماهية الرّوح التي تسكن هذه الخرابة، قطعت دموعه بكلمة أ أنت بخير يا عماه، ردّ علي قائلا: دفنت الخير مع حلوتي وها أنا أبكي وأتحسر لهذه النّجوم.

- أزوجتك هي؟

- لا.

- أمّك؟

- لا.

- قريبتك.

-لا..... إنّها من أحبّ القلب بصدق.

- سكتت للحظة وبدأت أفكّر سائلا نفسي: أهذا الشيخ متيم بهذا العمر؟ ماهذا الهراء... أيدوم الحبّ طول الدهر؟

لكن سرعان ما قطع أسئلتي بقوله: بنيّ الحبّ شيء جميل لكن من الصعب أن تحبّ، إذا كنت متفرغا اجلس لأسرد لك قصتي علّك تأخذ القليل من الخبرة التي اكتسبتها من أيّام شبابي.

- ها أنا جالس يا عم.

- سنتحدّث عن موضوع لطالما استحينا من فتحه أمام العائلة أو من نكنّ لهم قليلا من الاحترام، موضوع كان عفيفا طاهرا لكن لطخته بعض الأيادي القذرة وغيّرت مفهومه، وقع في الأيادي الخاطئة فمرّغته في التراب وداست عليه وجعلته ذريعة لممارسة طقوس الرذيلة لذلك أصبحنا نستحي من مناقشته مع ذوي الاحترام... إنّه الحبّ.

لن أقول لك إيّاك أن تحبّ ولن أجبرك على تجربة الحبّ لأنّ الحبّ لا يدقّ الأبواب بل يدخل علينا فجأة.

عندما كنت في أيّام شبابي قابلت حلوتي، كنّا ندرس في قسم واحد، لطالما جلست خلفها أزعجها تارة وأضحكها تارة أخرى، أذكر أنّها كانت متفوقة جدا بدراستها أمّا أنا كنت أجتهد فقط من أجلها، أدرس من أجل البقاء بجانبها لقد كنّا صديقين مقربين من بعضنا جدا، لكن سرعان ما تحوّلت الصداقة لحبّ، حبّ على شكل جحيم كنت أريدها بشدّة، أريد أن أمتلكها لكن ليس لديّ الشجاعة الكافية لمصارحتها، كنت أخشى أن ترفضني وتخرجني من حياتها فبقيت أكتم عشقي لسنوات لكن أتى عام امتلأ فيه القلب وبدأ يخفق بقوة كأنّه يقول: أخبرها... طفح الكيل، نفّذت ما طلبه منّي قلبي لكن للأسف ما كنت أخشاه قد حدث، لقد رفضتني كانت تظنني مجرد صديق.

لا يمكنني إجبارها على حبّي لكن لم يستطع رفضها لي أن يوقف عشقي لها لأنّني كنت أؤمن أنّ الحبّ شيء جميل والأشياء الجميلة تحتاج للمثابرة، بذلت كلّ ما بوسعي لكنّ الطريق إلى قلبها كان مسدودا.

عندما تحبّ يا بنيّ ستتمكّن من فعل كلّ شيء لكن لن ترى أيّ شيء، سيبدو لك العالم مظلما ثمّ سترى في ملامح كلّ فتاة وجهها وتعشق من الأسماء ما شابه أو طابق اسمها، لا أزال أتذكّر يوم الفراق حينما

أسر الحزن قلبي واستوطن جوفي، يومها أخبرتني بأنّها ستبتعد لأنّها لم تقدر على حبّي وضميرها يأنبها لأنّها تعذّبني، كانت تظن أنّ الابتعاد سيّد الحلول لنا لكن حتى البعد ما أنساني بل زادني شوقا واشتياقا. وبعد سنوات هاهي تعود حاملة بنيتها التي ورثت جمالها متشبثة بذراع زوجها الذي طالما تمنيت أن أكون هو، لقد فتحت تلك الجراح ونثرت عليها دموع الذكريات وهذا ما يبكيني، نصيحتي لك يا بنيّ، إذا أحببت لا تبتعد ولا تيأس حتى وإن كان الطريق مسدودا فعبّده وإن كان مليئا بقطاع الطرق فكن شهيد حبّ ولا تعش أسير عشق لأنّك ستكون ميتا على قيد الحياة، هنيئا لحلوتي زوجها وهنيئا لي شرب كأس الموت الأسود.

- مهلا يا عم، أستنتحر من أجل شخص لا يكنّ لك أيّ شعور؟

- لن أنتحر من أجله بل من أجل معاقبة نفسي، لقد ضيّعت حياتي من أجلها؛ لا زواج ولا حتى عمل ولا أيّ شيء، كلّ ما فعلته كلّ هذه السنين أنّني أحببتها ثمّ انتظرتها علّها تعود لكن ماذا فعلت هي؟ خيّبت ظنّي.

-كنت أحاول تغيير رأيه فلم أجد غير هذه الجملة رغم أنّني لا أؤمن بشيء اسمه ما وراء الموت - وما الفائدة من الموت إن كان المكان الذي ستذهب إليه أشدّ بؤسا ممّا أنت عليه _

تنهّد وقال: الجحيم جحيم، ثمّ انصرف بعد أن هدّأت من روعه قليلا أتمنّى ألّا يفكّر في الانتحار مرة أخرى.

كنت أشعر بصراع داخل جسدي بين قلبي وكبريائي، اللعنة لماذا أقارن كلماته بشعوري.

ما زلت أتذكّر أوّل يوم عرفت فيه اسمها حين رجعت لنفس المكان الذي رأيتها فيه ـحي عتيق بجانب دكان صغيرـ

دخلت على صاحب الدكان وبدأت أستجوبه كأنّني مفتش شرطة لكن لم يعطني أيّ معلومة عنها غير اسمها ـبتول ـ ومن ذلك اليوم أصبحت أكرّس كلّ اهتمامي لصاحبة هذا الاسم وأبحث عنها (اللعنة أنا لا أريد هذا الأمر خرج عن سيطرتي))

يوم 17 أفريل 2019 بعد أن مرّت سنوات على وفاة أبي عمر، تتعجبون هاه كيف لم أخبركم بهذا الخبر المهم..... لا تتعجبوا إنّه أمر عاديّ بالنّسبة لي، فكلّما أحببت شخصا ـعفوا أقصد أحبّني شخصـ مات، يمكنكم مناداتي باللعنة كنت ذاهبا لأتفقد الأوضاع في شركة سليمان وما إن دخلت حتى لمحت بتول بابتسامتها حاملة بين يديها بعض الأوراق، اتّجهت نحوها بغير إرادتي كأنّ شخصا كان يحرّكني، بدأت أفكّر في السبب الذي جعلها تأتي لشركتي كنّا نسير بخطى متماثلة، ركبنا المصعد معا، كان المكان مثاليًّا للحديث كلّمتها قائلا:

- صباح الخير... هل تتذكرين هذا الوجه؟

- ردّت: تبدو مألوفا بعض الشيء.

- ماذا تفعلين هنا؟

- وهل يهمّك الأمر... وأنت ماذا تفعل في شركة غسان؟

- أنا غسان.

- تمزح صحيح؟

- لا مكان للمزاح بشركتي إن أردت العمل.

انصرفت تاركا إيّاها مذهولة واتّجهت نحو مكتبي، سنرى الآن كيف تتحدّثين مع رئيسك في العمل.

هاه من يطرق الباب لا بدّ أنّها هي.

- تفضّلي.

- مرحبا سيّد غسان.

-ادخلي في صلب الموضوع آنسة بتول.

- أنا هنا للحصول على عمل، لقد قرأت في جريدة بأنّكم تحتاجون لسكرتيرة.

- هل لك شهادات؟ هل تجيدين لغات أجنبيّة؟ والسؤال الأهم هل تظنين نفسك في المكان المناسب؟ أنت متدينة بعض الشيء والشركة مختلطة يعني...

-الإسلام لم يحرم الاختلاط إذا كان القصد منه المشاركة في هدف نبيل أو عمل لكن يجب مراعاة القيود الشرعيّة الضابطة لكلّ لقاء بين الطرفين.

- مممم وما هي تلك القيود؟

- 1 الالتزام بغض البصر وعدم إطالة النظر أو النظر بشهوة أو إغراء.

2 الالتزام من المرأة باللباس الشرعيّ الذي يستر البدن.

3 الالتزام بأدب المسلمة في كلّ شيء؛ في الكلام فيجب أن يكون بعيدا عن الإغراء والإثارة تطبيقا لقوله تعالى ((فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا)) الأحزاب/32

في المشي كما قال تعالى ((وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ)) النور/ 31

4 أن تتجنب كلّ ما يثير ويغري من الرّوائح والعطور وألوان الزينة التي ينبغي أن تكون في البيت لا في الطريق أو أماكن العمل.

- حسنا أنت مقبولة يمكنك مباشرة عملك ابتداءً من الغد.

شرارة بين الإلحاد والإيمان

بين هذا وذاك خطان منفصلان، أنتم ترون أنا أولئك هم الأخيار وبالتالي فنحن في الطرف الآخر أشرار، لا يهمّنا رأيكم واللعنة عليكم ولنحيا نحن.

إن كنتم تقدّسون الملائكة فنحن شيطان، وإن كنتم تؤمنون بالله فنحن الملحدون.

أنا أكتب كلماتي هذه وأعلم أنّ الجميع يحتقرني، يكرهني، يريد قتلي، أعلم ذلك لأنّني لا أؤمن بدينكم ولا برسولكم، وكبرهان على كلامنا دعمنا موقفنا هذا بكثير من الحجج والبراهين لنقنعكم بصحة إلحادنا.

ملاحظة: يمكنكم أن تطلقوا عليّ اسم غسان رسول الملحدين.

أهدي كتابي هذا إلى كلّ ملحد... سأطبعه بشكل مصغر حتى يرافقك أين ما ذهبت لأنّك ستحتاجه..... ستصادف في حياتك الكثير ممّن يؤمنون بالجنّة والنّار سيحاولون إقناعك بدينهم لا تتعب نفسك بمناقشتهم بل أريهم هذا الكتاب -شرارة بين الإلحاد والإيمان-

.....

هذه كانت أوّل كلمات زيّنت بها أوّل صفحات الكتاب الذي سأنشره على نطاق واسع، كنت سأكتب الكثير لولا مقاطعة السيّدة بتول بالطبع تذكرتموها، تلك التي أعطيتها الكثير من الاهتمام لكن بمجرد عملها معي أصبحت أراها كلّ يوم، قلّ اهتمامي بها.. دخلت عليّ حاملة بعض الأوراق قائلة: صباح الخير سيّدي تفضّل قائمة الأعمال التي قمنا بها لهذا الشهر.

- اتركيها سأراها لاحقا.

- تعجبت كيف لم أعرها اهتماما لا هي ولا لورقتها السخيفة فقالت:

- سيّدي هل أنت بخير... ماذا تكتب يمكنني مساعدتك.

- ليس في مجال العمل.. أنا أكتب أوّل الصفحات في كتابي الذي سأنشره لأنّ الجميع سيحتاجه.

- جمييييل لم تخبرني بأنّك مولع بالكتابة وأنا أعشق المطالعة، هل يمكنني أن أرى ماذا كتبت؟

- سيزعجك ولن يعجبك.

- لماذا أنا أقرأ كلّ أنواع الكتب.

- حسنا لك ذلك لكن لن تنزعجي.

كنت أتوقّع منها أن تسبّني أو أن تقدّم استقالتها أو أن تحتقرني على الأقل، لكن فاجأتني ردّة فعلتها... لم تحرّك ساكنا بل ابتسمت فقط وقالت: أنت ملحد حقا أم أنّك تقمصت شخصية ذلك الملحد فقط؟

- أنا ملحد حقا.

- أنا أحبّ مناقشة الملحدين على الأقل هم يؤمنون بأنّ لا إله... إنّها نصف الشهادة (لا إله إلّا الله محمد رسول الله) عكس الذين يؤمنون بأكثر من إله.

نحن نحاول إقناع الملحدين بوجود الله وبعض ديانات تريد إقناعنا بوجود أكثر من واحد... عجيب.

- إذًا هذا لا يزعجك... أن تعملي مع ملحد.

- لا عادي بالعكس هل تكرّمت ومنحتني الفرصة بأن أقرأ ماذا كتبت في كلّ يوم.

- حسنا لك ذلك.

- لكن لديّ شرط.

- ما هو؟

- سأكون أوّل المنتقدين لكتابك... أقصد بعد قراءة صفحة من كتابك سنتناقش فيها

- حسنا لك ذلك.

لقد كان كلامها جميلا ولم أتوقّعه أبدا، حتى أنّه شجّعني على كتابة الكثير.

ذهب النّهار بنوره وأتى الظلام بهدوئه وظلمته الحالكة التي تشبه حظي -عينيها-

كنت جالسا في غرفتي ساهرا على ضوء فانوس، أحتسي من ذلك الكأس المعتق، ممسكا بذلك القلم البائس الذي رمى به الحظ إلى أناملي لتغذّبه وبدأت أكمل ما كتبت في صفحة كتابي الأولى.

.....

عزيزي الملحد إليك هذا:

⋆ الإلحاد ليس دينا:

على عكس الديانات والجماعات الأخرى فالإلحاد موقف شخصيّ، صح يمكن أن تتشابه التبريرات والأدلة لكن ليس هناك ميثاق عالميّ للإلحاد، يجب على كلّ ملحد على وجه الأرض أن يتبعه، لا يوجد رسول للملحدين أو كتاب عليهم اتباعه لذلك فقررت أن أكون أوّل رسول لكم، وهذا هو كتابكم وسيشمل جميع تبريراتكم ويزيدكم قوة لإثبات صحة موقفكم، ولنبدأ بالمبادئ الواجب الاعتراف والاقتناع بها لنكون ملحدين.

◉ المبدأ الأوّل

الملحدون ليسوا عباقرة أو حمقى

ككلّ البشر، الملحدون منهم العباقرة ومنهم الحمقى، نفس الأمر بالنسبة للمؤمنين فكما يوجد من يؤمن دون وعي يوجد من يلحد دون وعي.

◉ المبدأ الثاني

الملحدون ليسوا فاشلين اجتماعيًّا

كما قلنا الإلحاد موقف شخصيّ، وقد يكون الدّافع إلى الإلحاد ظروفا اجتماعيّة أو نفسيّة قاهرة، ربّما فشل دراسيّ أو عاطفيّ أو مشاكل أسريّة، مثله مثل الإيمان تماما. هناك من دفعه فشله الدراسيّ إلى التطرّف الدينيّ، وأعرف من دفعته ظروفه الماليّة الصعبة لتغيير دينه بحثا عن الفيزا. هناك من ترك دينه لأنّ الإله لم يسعفه في أحلك اللحظات، وهناك من ترك الإلحاد لأنّ الإله استجاب لضعفه. قد تجدُ من ألحد بحثا عن الحقيقة، مستخدما المنطق والعقل. ومن الملحدين من آمن لأنّه وجد الأجوبة التي يبحث عنها في دين معيّن... فكما ترى عزيزي، الأمر بعيدٌ عن التعميم، بل خذها قاعدة عامّة "لا تعمّم".

بعد أن كتبت كلماتي هذه بدأت أعد الساعات أنتظر طلوع النهار لأقدّم كلماتي هذه لبتول. كنت متشوقا لرؤية نقدها... لقد كانت ليلة طويلة وها قد مرّت..... اتّجهت بسرعة نحو الشركة سلّمت على جميع العمال ثمّ قلت بصوت مرتفع:

- أين بتول؟

ردّ أحد العمال: لم تحضر بعد.

- عندما تأتي أخبرها بأن تمرّ على مكتبي.

- حاضر سيّدي.

- دخلت مكتبي وكنت متوتر جدا كأنّني أنتظر نتائج البكالوريا.... لقد ذكّرني هذا التوتر بأيّام المراهقة وبينما أنا عائد بعقلي لسنوات الدراسة وإذ ببتول تدخل عليّ قائلة:

- صباح الخير سيّدي.

- صباح النور... اجلسي.

-هاقد جلست

- ناولتها ذاك الكتاب قائلا:

- انتقدي ما كتبت أيّتها المؤمنة.

انغمست في قراءة كلماتي لدقائق ثمّ رفعت رأسها وقالت:

- لا يوجد ما أنتقد، كلامك منطقيّ لكن بالنسبة لمن ترك دينه من أجل مال أو ظروف فهو لم يكن مؤمنا من البداية، لأنّنا إن أحببنا بصدق لن نخون فما بالك إن آمنّا بصدق.

- حسنا يمكنك المغادرة...

وهكذا كان ذلك الكتاب ذريعة للتحدّث معها خارج إطار العمل، فأصبحت أكتب كلّ يوم وهي تردّ على كلماتي في اليوم ذاته، وسأخبركم ما دار بيننا في كلّ يوم.

في اليوم الواحد أنا أكتب سؤال إلحادي وهي تجيب عليه، فرجاءً أعطوني أسماعكم وأبصاركم لأجول بكم في عالمي وعالمها - شرارة بين الإلحاد والإيمان -

◉ اليوم الأوّل

السؤال من غسان: عزيزي المؤمن سواء كنت مسيحيًّا، يهوديًّا، مسلما من أهل السنّة كنت أو شيعيًّا إذا كنت ترفض إلحادي أقنعني بوجود الله ولا تقنعني من القرآن لأنّني لا أؤمن بوجود كاتبه فكيف أصدّقه.

الإجابة من بتول: أوّلا أهنئك على إلحادك.... نعم تهاني لك... لأنّك مختلف عن البعض، لأنّ بعض الأشخاص إيمانهم أعمى.... مسيحيًّا لأنّه ولد في عائلة مسيحيّة.... مسلما لأنّ أبويه مسلمين لكن أنت لست أعمى أنت تفكّر وتريد الوصول للحقيقة وأريد أن أوضح أمرا.. أنت لا تؤمن بوجود الإله لأنّ لك مفهوما خاطئا عن الله.

ماهو الإله في نظرك يا سيّدي؟ فأيّ شخص يرفض شيئا يجب أن يعرف مفهومه وتعريفه، كما أعلم أنّك تؤمن بالعلم وتقول بأنّه المعيار الأساسيّ لتصديق كلّ شيء إذًا لأحاول أن أثبت لك ذلك بصورة علميّة إن شاء الله.

لنفترض وجود جهاز ما لم يره بعد أيّ شخص في هذا العالم ووضع أمامك هذا الجهاز فالسؤال من هو الشخص القادر على تعليمك آلية عمل هذا الجهاز؟ بالتأكيد سيقول الملحد الشخص القادر على ذلك هو صانع الجهاز أو مخترعه أو مبتكره أو خالقه.

إذا كان لهذا الجهاز الصغير صانعا فهل يعقل ألّا يكون لهذا الكون الكبير خالق، كفاك كذبا على نفسك أن تريد أن تقنع نفسك بأنّ هذا الكون نتيجة انفجار عظيم... كون بهذا التناسق يأتي هكذا نتيجة انفجار...أكيد.

أتمنّى أن تكون قد اقتنعت بإجابتي.

◉ اليوم الثاني

السؤال من غسان لنفترض أنّني اقتنعت بوجود الله كيف أعرف أنّ الإسلام هو الدين الحق للعبادة؟

الإجابة من بتول: الإسلام مشتق من كلمة سلام والتي تعني الأمن ولأثبت لك بأنّه دين من عند الله وأنّ القرآن نزل من السّماء يجب أن نثبته أمام اختبار الزمن، في السابق كان عصر المعجزات والقرآن المجيد هو معجزة المعجزات، بعده جاء عصر الأدب والشعر والعرب المسلمون وغير المسلمين أقرّوا بأنّ القرآن أفضل كتاب أدب على وجه الأرض ولم يجدوا فيه خطأ أدبيًّا واحدا، أمّا الآن فنحن في عصر العلوم التقنيّة وإذا وضعنا كلّ الكتب السماويّة تحت هذا الاختبار ستفشل إلّا القرآن لأنّه غير قابل للتحريف والقرآن والعلوم. لكن يجب أن تعرف أنّ القرآن ليس كتاب علوم لكنّه كتاب دلالات علميّة وقد ذكرت الكثير من الدلالات في القرآن وإن قارنتها بالعلوم المكتشفة حديثا ستجد بأنّ القرآن اكتشفها قبل 1400 عام مضت وأهم هذه الدلالات هي:

*** اكتشاف توسع الكون: ربّما يكون أهم اكتشاف علميّ في القرن العشرين ما كشفه العلماء حول توسع الكون حيث وجدوا أنّ المجرات تتحرّك متباعدة عن بعضها بسرعات كبيرة جدا ممّا يسبّب**

اتّساع الكون بشكل مذهل، هذه النتيجة وصل إليها العلماء بعد تجارب مريرة ومراقبة طويلة وتكاليف باهظة على مدى قرن من الزمن والعجيب أنّ القرآن كشف لنا حقيقة اتّساع الكون قبل 14 قرن في قوله تعالى ((وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)) الذاريات 47 .

وبذلك يكون القرآن أوّل كتاب أشار إلى توسع الكون... أليست هذه معجزة تستحق التفكر؟.

* الماء أساس الخلق: من بين ما تحدّث عنه القرآن الكريم أنّ الماء أساس خلق كافة المخلوقات وقد أثبت العلم الحديث حقّا بأنّ جسم الكائن الحيّ يحتوي على نسب عالية من الماء كما أغلب التفاعلات الكيميائيّة التي تحدث في جسم الكائن الحي لا يمكن أن تحدث إلّا في وسط مائيّ سبحان الله صدق حين قال ((وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)) الأنبياء 30 .

* الشعور بالألم في الجلد.

من بين الإثباتات التي تمكّن العلم الحديث من إثباتها، أنّ الإنسان يمكنه أن يشعر بالألم من خلال الطبقة الجلديّة، فقط فهي الجزء المتواصل مع الأعصاب، وهو الجزء الذي نشعر فيه بالألم، هذا الأمر الذي تمّ إثباته في القرآن الكريم، فعليه في تلك الآية التي تحدّثت عن عذاب الكافرين في قوله تعالى (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُوْدُهُمْ بَدَّلْنَاْهُمْ جُلُوْدًا غَيْرَهَا لِيَذُوْقُواْ الْعَذَاْبَ) النساء 56.

أتمنّى أن تصدّق الإسلام.

.....

لقد كانت كلمات بتول تحفّزني على معرفة القرآن أكثر فرغم أنّني ولدت في عائلة مسلمة إلّا أنّني كنت أجهل هذه المعلومات عن القرآن، كنت أقرأ قراءة نقديّة كنت أبحث عن الأخطاء التي ستجعلني متمسكا بموقفي "لا إله" ويبدو أنّني وجدتها.

.....

◉ اليوم الثالث

السؤال من غسان: كيف وسوس الشيطان لآدم وحواء وهما في الجنّة رغم أنّ الجنّة حرمت على الشيطان وهذا ذكر في قرآنكم؟

الإجابة من بتول: هذا سؤال جميل ولن أجيبك بطريقة العلماء والمفسريين بل سأجيبك بعفويتي وحسب فهمي لهذا الموضوع لأنّك لا تحتاجه لو كنت بحاجة لتعرف كيفية دخول الشيطان للجنّة لأخبرك بها تعالى... لكن بما أنّك سألت لأخبرك بما أعرف حسب فهمي وربطي للآيات القرآنيّة، خلق الله آدم ثمّ خلق له حواء ثمّ قال لهما ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ سورة البقرة:35

أوّلا: انطلاقا من هذه الآية سنستنتج بأنّ الجنّة التي سكن فيها آدم ليست نفس الجنّة التي سيدخلها الصالحون بعد الحساب، لأنّ تلك الجنّة دار قرار وليست للاختبار أمّا جنّة آدم فهي للاختبار، إضافة لذلك عندما وسوس له الشيطان قال هل أدلّك على شجرة الخلد ومنه فإنّ جنّة آدم ليست جنّة الخلد التي سندخلها بعد الحساب.
ومنه نستنتج أنّ الشّيطان حرّمت عليه جنّة الخلد وليس جنّة آدم، أمّا بالنّسبة لجنّة آدم لا يهمّنا مكانها والله أعلم.

◉ اليوم الرابع

السؤال من غسان: لماذا خلقنا الله رغم أنّه ليس بحاجة لنا؟

الإجابة من بتول: لماذا خلقنا الله.. هل نحتاج إلى إجابة؟

سؤالٌ يطرحه بعض النّاس ليس لمعرفة ماذا أراد الله من البشر حين خلقهم، فإجابة هذا السؤال واضحة في القرآن: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، ولكنّهُ يُطرح لمعرفة ماذا أراد الله من خلقه للبشر والعالَم!

وأحبّ أن أقول من البداية: هذا سؤال لا إجابة عليه! نعم، نحن لا نعرف الإجابة عن هذا السؤال، وقد لا نعرفها حتى بعد مماتنا لأسباب عديدة: منها أنّنا لا نملك الأدوات العلميّة اللازمة لمعرفة الإجابة،

ومنها أنّنا غير محتاجين للإجابة عنه لإقامة حياة راشدة في هذه الدنيا، كما ينسى الإنسان وهو يطرح هذا السؤال أنّ الله هو الخالق، فهو سبحانه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وهو ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾. ينسى الإنسان أنّه - مهما سما في تفكيره وذكائه - يظلّ عبدًا، ليس إلهًا ولا متصرّفا بشؤون الخليقة حتى يكون من الضروريّ أن يمتلك إجابة عن هذا السؤال! وحين يدرك المسلم أنّ علاقته مع الله هي علاقة العبوديّة، علاقة عبدٍ بإله، بما فيها من محبّة وخوف ورجاء وخضوع وإنابة لله الخالق من العبد الضعيف الفقير، وأنّه سبحانه مالك الملك؛ حينها فقط يدرك أنّ سؤاله هذا فيه خَدْشٌ لمقام العبوديّة.

وملخص القول لن تتستفيد أيّ شيء لمعرفة الإجابة.

◉ اليوم الخامس

السؤال من غسان: لقد أقنعني ردّك عن كلّ تلك الأسئلة وأنا الآن أؤمن بوجود الله لكن أظنّ أنّه ظلمني؛ لقد حرمني من أمّي وأبي كما حرمني من صديقي ماتوا كلّهم لماذ الله يظلمني بهذا القدر.

الإجابة من بتول: أنت محظوظ جدا يا غسان رغم أنّك لم تكن تؤمن بوجود الله أو كنت حاقدا عليه وتدّعي عدم وجوده إلّا أنّه يحبّك ولذلك يبتليك... نعم يحبّك فمثلا عندما تدخل للبستان تختار أجمل

زهرة وتقطفها تلك الزهرة تظنّ أنّها مظلومة لإنّك اخترتها من بين كلّ تلك الأزهار واقتلعتها لكن أنت معجب بها وستهديها لزوجتك حتى تضعها في مزهريّة أو تعيد غرسها في مكان أفضل وتهتمّ بها... أفهمت قصدي؟

إضافة لذلك فلتعلم بأنّ الدنيا جنّة الكافر وسجن المؤمن فيجب أن تصبر على ملذاتها ولدغاتها... إنّ الله يختبرك ليعلم أأنت عبد شكور أم لا، وتذكّر بأنّ أعظم الجزاء يأتي من كثرة الابتلاء .

الرسول حُرم من والديه ولم يعرف أمّه حتى... ماتت زوجته وعمه في عام واحد... أخرجوه من دياره لكنّه صبر على كلّ هذه اللدغات، أكرر وأقول أنت محظوظ.

لأنّك بتول

بسم الله، أشهد أنّ لا إله إلّا الله، أستغفر الله، والله أكبر، هذه كلمات أنا قائلها، نعم لقد مات ذلك المتعجرف الحقير الذي سكن جوف غسان لسنوات، لقد كانت نار الحقد تملأ قلبي لكن عندما اشتعلت نار الحبّ أطفأت كلّ النيران واستولت وحدها عليه وأصبح القلب ينبض بتول..... بتول، كيف لا يمكنني أن أعشق فتاة غيّرت حياتي وأخذت بيدي إلى الله لقد أصلحت ما بيننا، بعد أن عرفت أنّني آمنت بالله ورسوله فرحت كثيرا لأنّها تظنّ أنّ أسئلتي انتهت لكن هيهات هيهات، كنت أسألها عن الصيام والزكاة وكيفية الخشوع في الصلاة -كنت أعرف الإجابات لكن أدّعي ذلك لمحادثتها لا غير- وكانت هي تنصحني دائما لأنّها بتول أتذكّر أنّها أجابت عن كيفية الخشوع في الصلاة بهذه الكلمات: عندما تتوضّأ وتسير للمسجد هرول مثلما يهرول الطفل الصغير نحو الأرجوحة أو ما شابه، وعندما تبدأ بصلاتك تمهل مثل العجوز الذي يخاف أن يكسر إحدى فقراته، كما يجب عليك أن تتخيّل أنّ مكة المكرمة أمامك والجنّة عن يمينك والنّار عن يسارك والموت من خلفك، تخيّل أنّها آخر صلاة لك وأكثر من السجود، إنّها كلمات بتول.

أتذكّر كيف صارحتها بحبّي بعد أن استجمعت ما تبقّى من شجاعتي واتجهت نحوها، يومها كانت جالسة في مكتبها مبتسمة زاهية بغمازتها التي أفديها بالنفس والنفيس خاطبتها قائلا: بتول أنا أتمنّى أن يجعل الله ما تبقّى من عمري أفضل ممّا مضى، ولن يتم هذا إلّا بفضل الله أوّلا ثم أنت، أحبّك في الله لأنّك بتول ولا شيء أفضل للمتحابين في الإسلام سوى الزواج، هل تقبلين بي زوجا لك في السّراء والضّراء في البؤس والسّعادة.

ردّت عليّ قائلة: غسان في البداية كنت أتهرب منك ثمّ جعل الله إلحادك سببا في تقربنا من بعض، وها أنت اليوم تائب وتريد منّي البقاء بجانبك.. لا أصدّق ذلك.

- بتول لقد صدقت القول عندما أخبرتني بأنّ الله يحبّني وبأنّني محظوظ، كنت أظنّ أنّ الله ظلمني لكنّه عوّضني بك.

وجدت فيك الأمّ يا بتول، الأب، الأخ، الأخت، الزوجة.

- غسان أنت تجعلني أستحي.... شكرا لأنّك أحببتني.

- شكرا لأنّك غيّرت حياتي يا من عرّفني بمعنى الحبّ.

- غسان أنا موافقة على زواجك لكن بشرط.

- شروطك أوامر يا من غيّرت حياتي.

- أريد منك أن تعتمر أو تحج قبل أن تطلبني من أبي ونتزوج، هكذا لكي تبدأ حياة جديدة معي.

- حسنا ليكن ذلك.

هكذا طلبت منّي بتول وأنا لا يمكنني رفض طلباتها خصوصا حين تبتسم وتبرز لي تلك الغمازة، وربّما طرحتم هذا السؤال بينكم وبين أنفسكم... كيف وقع غسان وبتول في حبّ بعضهما انطلاقا من نقاش في غاية الرسميّة؟

أريد أن أخبركم أنّنا تناقشنا في أمور الحبّ وعرفنا بعضنا بعض، وإن أخبرتكم بما دار بيننا من حديث لن يفيدكم بشيء..... أنا أكتب فقط ما أريد منكم أن تعرفوه.

دعكم من ثرثرتي ودعوني أكمل لكم قصّتي المؤلمة والجميلة في آن واحد.

بعد أن نفّذت طلب حلوتي وذهبت لأداء مناسك العمرة، في كلّ يوم يتقطّع القلب شوقا لها... كنت أشتاق لها بدل اليوم يومين وكانت الصلاة خير ملجأ للصبر على الفراق وبعد أن مرّت الأشهر واعتمرت بفضل الله، عدت للجزائر وأنا كلّي فرح.

اتّصلت بها وأخبرتها بأنّني في الجزائر وأنّني أشتاق لها كما أخبرتها بأن تجهز نفسها لأنّني مستعجل للزواج بها، أخبرتها باستعجالي فوجدتها أكثر استعجالا.

يا إلهي لا أصدّق هل انتهت اللعنة؟ هل سأتزوج بحلوتي؟

لكن أجابني القدر وخيّب ظني... لقد كنت فرحا فجأة تحوّل الفرح إلى ألم.

يومها وردني اتّصال من بتول لكن لم تكن هي، لقد كان شخصا غريبا خاطبني قائلا: صديقي إنّ صاحبة هذا الهاتف تعرّضت لحادث مرور وهذا آخر رقم اتّصلت به.

كانت هذه الكلمات مرعبة، يبدو أنّ اللعنة لم تفارقني، أعطاني ذلك الغريب عنوان المستشفى فاتّجهت نحوه وكلّي أمل بأن تكون بخير.

وجدتها في حالة مزرية هرعت نحوها قائلا:

- بتول... تحمّلي ستكونين بخير.

- غسان اشتقت لك.

- أنا أيضا... أرجوك تحملي ستكونين بخير لا تخافي.

- أنا لا أخاف من الموت يا غسان إنّها كأس وكلّنا سنتجرع منه.

- لا لن تموتي... لا يمكنني دونك.

- غسان أنا سعيدة لأن قلبك أصبح طيّبا، حتى إن متت سأموت مرتاحة ياغسان لأنّني متأكدة بأنّك أصبحت طيّبا وسيعوضك الله بزوجة أفضل منّي... الطيّبون للطيّبات وداعا يا زوجي في الجنّة إن شاء الله.

كانت هذه آخر كلمات دارت بيننا قبل أن تفارق الحياة، في البداية لم أستطع أن أتحمّل.... لكن كلّما تذكّرت كلماتها أفرح - أنت محظوظ يا غسان إنّ الله يختار من يحبّ لكي يبتليه- لقد كان هذا غريبا كنت أشعر بالفرح والحزن في آن واحد.

***

النّهايـــــــــة...

أتمنّى أن تعجبكم قصّتي، كنت أكتبها وكلّما غاب عنّي الإلهام احتضنت ابنتي بتول فهي تشعل نار الإلهام في قلبي، وهي أحبّ أبنائي لأنّها تذكّرني بفتاة غيّرت حياتي وهي تنتظرني في الجنّة إن شاء اللّٰه.

***

منشورات المثقف